نشأته (α) في البادية :-

فبعد أن أرضعته ثويبة مولاة أبي لهب ، دفع به إلى حليمة السعدية ، فقضى النبي – (α) – الأيّام الأولى من حياته في بادية بني سعد . وكانت عادة أشراف مكة أن يعهدوا بأطفالهم إلى نساء البادية ليقمن على رضاعتهم ,لأن البادية أصلح لنمو أجسام الأطفال وأبعد عن أمراض الحضر التي كثير ما تصيب أجسامهم فضلا عن إتقان اللغة العربية وتعود النطق بالفصحى منذ نعومه أظفارهم. وكان مقدار العناية والرعاية بالطفل يختلف من قبيلة لأخرى لذا حرص أشراف مكة على أن يكون أطفالهم عند أكثر هذه القبائل عناية , ورعاية وكانت أشهر قبيلة في هذا الأمر هي قبيلة بنى سعد. ولم تقف شهرة بنى سعد على أمر العناية والرعاية بالطفل فقط , بل حازت الشهرة في أن لغتها كانت عربية خالصة لم تشبها شائبة فضلا عما اشتهرت به من أخلاق كريمة طيبة لذا حرص عبد المطلب على أن يكون محمد في بني سعد فلما جاءت حليمة السعدية لتأخذه وأحست هذا الحرص طمعت في جزل العطاء فتمنعت في أخذه فلما أجزل لها أخذته وكان رسول الله (α) يفخر برضاعته في بنى سعد فيقول : أنا أعربكم أنا قرشي واسترضعت في بني سعد بن بكر

ثمّ جاء دور استرضاع الأولاد من نساء أهل البادية، فكانت تلك عادتهم طمعا في نجابة الأولاد، فجاء المرضعات يلتمسن الرّزق بذلك .. وكانت أقدامهنّ تتزاحم على كلّ باب سُمِع أنّ به مولودا جديدا ويذكر المؤرخون أن النبي محمد عرض على جميع المرضعات اللاتي وفدن على مكة فأبين يأخذنه ليتمه وفقرة , وأنهن كن يطمعن في أبناء الأغنياء وأن حليمة ما عادت إليه الا لأنها لم تجد طفلا غيره وهذا غير صحيح فمحمد لم يكن فقيرا فهو في كفالة جدة عبد المطلب سيد مكة وكبيرها , ومثله من يطمع في عطائه وقد ذكرت المصادر أن جيش أبرهه في حملته على الكعبة قد حاز مائتين من الإبل لعبد المطلب , كما أنة فدى ابنة عبد الله بمائة من الإبل , وذبح مجموعة كبيرة منها في زواجه لا يصد عنها إنسان ولا حيوان ,وذكر اليعقوبي أن عبد المطلب عند موته لف في حلتين من حلل اليمن قيمتها ألف مثقال من الذهب فمن كان ذلك حاله أيعقل أن يكون فقيرا تترك المرضعات ولده ؟ ذلك فضلا عن إرضاع الأطفال في البادية عادة أشرف مكة وأغنيائها , أما الفقير فكانت كل أم ترضع طفلها .

نشأته (α) في بادية بني سعد :-

وندع المرضعة حليمة بنت أبي ذؤيب السّعديّة من قبيلة بني سعد بن بكر تروي لنا قصّتها في ذلك:تحدّثت: أنّها خرجت من بلدها مع زوجها، وابنٍ لها صغيرٍ ترضعه[1]، في نسوة من بني سعد بن بكر، تلتمس الرّضعاء. قالت: وذلك في سنة شهباء[2] ، لم تُبقِ لنا شيئا، فخرجْتُ على أتان لي قمراء معنا شارف لنا، والله ما تبضّ بقطرة[3] ، وما ننام ليلنا أجمع من صبيّنا الّذي معنا من بكائه من الجوع، ما في ثديي ما يغنيه، وما في شارفنا ما يغذّيه، ولكنّا كنّا نرجو الغيث والفرج.

فخرجت على أتاني تلك، فلقد أَدَمْت[4]، بالرّكب، حتىّ شقّ ذلك عليهم ضعفا وعجفا العجف: الهزال .حتّى قدمنا مكّة نلتمس الرّضعاء، فما منّا امرأة إلاّ وقد عُرِض عليها رسول الله (α)، فتأباه إذا قيل لها :إنّه يتيم، وذلك أنّا إنّما كنّا نرجو المعروف من أبي الصبيّ، فكنّا نقول: يتيمٌ وما عسى أن تصنع أمه وجدّه، فكنّا نكرهه لذلك.

فما بقيت امرأة قدِمت معي إلاّ أخذت رضيعا غيري، فلمّا أجمعنا الانطلاق، قلت لصاحبي: والله إنّي لأكره أن أرجع من بين صواحبي ولم آخذ رضيعا، والله لأذهبنّ إلى ذلك اليتيم، فلآخذنّه ! قال: لا عليك أن تفعلي، عسى الله أن يجعلَ لنا فيه بركةً.قالت: فذهبت إليه، فأخذتُه، وما حملني على أخذه إلاّ أنّي لم أجد غيرَه.

فلمّا أخذتُه، رجعتُ به إلى رحلي، فلمّا وضعتُه في حجري أقبل عليه ثدياي بما شاء من لبن، فشرِب حتّى رَوِيَ، وشرب معه أخوه حتَى روي، ثمّ ناما وما كنّا ننام معه قبل ذلك. وقام زوجي إلى شارفنا تلك، فإذا إنّها لحافل، فحلب منها ما شرب وشربت معه، حتّى انتهينا ريًّا وشِبَعاً، فبتنا بخير ليلة.

قالت: يقول صاحبي حين أصبحنا: تعلمي – والله – يا حليمة، لقد أخذتِ نسمةً مباركةً .قالت: والله إنّي لأرجو ذلك.

قالت: ثمّ خرجنا، وركبت أتاني، وحملته عليها معي، فو الله لقطعت بالرّكب ما يقدِر عليها شيءٌ من حُمُرِهم، حتّى إنّ صواحبي ليَقُلن لي: يا ابنة أبي ذؤيب ! ويحك اِربَعِي علينا !

---

[1] - واسمه: عبد الله بن الحارث بن عبد العزّى.

[2] - المجدبة البيضاء التي لا يُرى فيها خُضرة.

[3] - الأتان: أنثى الحمار، والقمراء البيضاء فيها كدرة نحو الرّمادي. والشّارف: النّاقة المسنّة. تبض: أي: ترشح العرق.

[4] - أطلت عليهم السّير، لأنّهم ينتظرونها.

أليست هذه أتانُك الّتي كنتِ خرجتِ عليها ؟ فأقول لهنّ: بلى والله إنّها لهي هي ! فيقلن :والله إنّ لها لشأنا.

قالت: ثمّ قدمنا منازلنا من بلاد بني سعد، وما أعلم أرضًا من أرض الله أجدبَ منها، فكانت غنمي تروح عليّ حين قدمنا به معنا شِباعًا لُبَّناً، فنحلُب ونشرَب، وما يحلُب إنسان قطرةَ لبنٍ، ولا يجدُها في ضِرعٍ حتَّى كان الحاضرون من قومنا يقولون لرُعيانهم: ويلَكم ! اسرحوا حيث يسرح راعي بنت أبي ذؤيب! فتروح أغنامُهم جِياعًا ما تبِضّ بقطرة لبن، وتروح غنمي شباعا لُبَّنًا.فلم نزل نتعرّف من الله الزّيادة والخير، حتّى مضت سنتاه، وفصلتُه، وكان يشِبُّ شبابا لا يشبِه الغِلمان، فلم يبلغ سنتيه حتّى كان غلاما جَفْرًا[5]. قالت: فقدمنا به على أمّه، ونحن أحرص شيءٍ على مُكثِه فينا، لما كنّا نرى من بركته، فكلّمْنَا أمَّه، وقلت لها :لو تركتِ بُنَيَّ عندي حتّى يغلَظ، فإنّي أخشى عليه وبأَ مكّة تقصد: الطّاعون ! [قالت: فلم نزل بها حتّى ردّته معنا ..." وهكذا رجع(α) إلى البادية مرة أخرى ليلقى من مرضعته حليمة كل عناية ، مع حرصها على بقائه عندها حتى بعد إكمال السنتين ، لما رأت من البركة التي حلّت عليها بوجوده – (α) – ، حيث امتلأ صدرها بالحليب بعد جفافه ، حتى هدأ صغارها وكفّوا عن البكاء جوعاً ، وكانت ماشيتها في السابق لا تكاد تجد ما يكفيها من الطعام ، فإذا بالحال ينقلب عند مقدم رسول الله – (α)– حتى زاد وزنها وامتلأت ضروعها باللبن ، ومن أجل ذلك تحايلت حليمة لإقناع والدة النبي – (α)– بضرورة رجوعه إلى البادية بحجّة الخوف عليه من وباء مكّة . وقبل أن ندع السيّدة حليمة السّعدية تواصل سرد ما لديها من نشأة النبيّ (α) في حجرها، جاء في خبر إعادة النبي (α) إلى أمّه حينما فطمته حليمة فيما رواه أبو نعيم عن بعض رعاة حليمة قالوا : " مكث رسول الله (α) سنتين حين فطم وكأنه ابن أربع سنين فقدموا به على أمّه زائرين لها وهم أحرص شيء على ردّه مكانه لما رأوا من عظيم بركته ، فلمّا كانوا بوادي السرر لقيت نفرا من الحبشة فرافقتهم فسألوها فنظروا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم نظرا شديدا ثم نظروا إلى خاتم النبوة بين كتفيه وإلى حمرة في عينيه فقالوا : هل يشتكي عينه ؟ قالت : لا ولكن هذه الحمرة لا تفارقه ، قالوا : والله إنّه نبي.

---

5 - الغليظ الشّديد.